الدكتور محمد المفرح مروءةٌ وريادةٌ[١]

بقلم: د. محمد بن إبراهيم الحمد

عرفت الدكتور الطبيب محمد بن عبدالله المفرح منذ كنت طالباً في السنة الأولى الثانوية، حيث كنت أرافق والدي رحمه الله أو أحد أقاربي عندما حولوا من مستشفى الزلفي العام إلى مستشفى الشميسي في الرياض ما بين عام ١٤٠٢هـ إلى ١٤٠٤هـ.

وكنت صغيراً في السن، ومرافقاً لمريض، ولا أعرف أحداً في ذلك المستشفى.

ولا يخفى ما يعانيه المرافق خصوصاً إذا كان صغيراً، وكان في بلد غير بلده؛ حيث تراه خائفاً مشفقاً على مريضه، حريصاً على أن تتابع حالته باستمرار.

وكان الدكتور محمد المفرح أنذاك طبيباً في ذلك المستشفى، ويمر على المرضى الذين يشرف على علاجهم، ثم يبدأ دوامه في عيادته صباحاً، ثم يأتي بعد العصر لأجل الدوام المسائي الذي ينتهي قبل المغرب.

وكنت أحياناً أجتهد من تلقاء نفسي؛ فأذهب إليه في العيادة؛ لأخبره

---

(١) كلمة كتبتها مقدمةً لكتابه (من الزلفي إلى برلين) ثم زدت عليها فيما بعد.

عن حالة المريض الذي أرافقه، وأسأله عما يحتاج إليه من العلاج، وعن مدة إقامته في المستشفى.

وإذا أتيت إلى عيادته رأيت أعداداً عند بابه ينتظرون الدخول إليه إما لكشف حالة جديدة، أو متابعة حالة سابقة.

وكثير منهم يأتي دون موعد سابق، بل أظن أن المواعيد في تلك الفترة لم تكن كحالها الآن؛ إذ يدخل من يأتي أولاً؛ فإذا انتهى وقت الدوام الرسمي خرج الطبيب من عيادته؛ فيذهب من لم يتمكنوا من الدخول على الطبيب، ويأتون في وقت آخر.

وكان الدكتور محمد المفرح إذا دخل عليه المريض أعطاه فرصته الكافية، وأفاض في فحص حالته؛ فيخشى من عند باب عيادته أن ينتهي الدوام؛ فتغلق العيادة، ويخرج الطبيب، قبل أن يتمكنوا من الدخول عليه، وربما أقلقه بعضُهم، وطرقوا عليه الباب قائلين: ماذا نصنع؟ سوف ينتهي الدوام، ولم نتمكن من الدخول عليك.

وكان بإمكانه ـ وذلك عدلٌ لا ظلم فيه ـ أن يقول: إذا انتهى الدوام فتعالوا في وقت لاحق، بل من حقه أن يغضب عليهم، وينهرهم.

ولكنه ـ حفظه الله ـ لم يكن كذلك؛ بل كان يراعي حالة المرضى، ومرافقيهم؛ فكان ربما خرج بين الفينة والأخرى، وقال لمن عند باب

عيادته: انتظروا، ولا تقلقوا؛ فلن أخرج من العيادة إلا إذا انتهى آخر واحد منكم؛ فههنا يرتاح المراجعون من المرضى أو مرافقيهم.

ومن كان منهم على عجلة من أمره فإنه ربما ذهب ولم يرجع، أو ذهب ثم رجع مرة أخرى.

وإذا حان وقت صلاة المغرب أغلقت أكثر العيادات، وانتهى وقت الدوام.

أما الدكتور محمد المفرح فيصلي المغرب، ثم يرجع إلى العيادة مرة أخرى، ويمكث إلى صلاة العشاء، ثم يصلي العشاء، ويرجع مرة أخرى، فلا ينصرف إلا إذا لم يبق بباب عيادته أحد.

وههنا لا يبقى في العيادات بابٌ مفتوحٌ إلا باب عيادته، وأنوارها المفتوحة.

أما ما عدا ذلك من أنوار الممرات، وأبواب العيادات فمغلقة.

وكنت من ضمن من يدخلون عليه، فأسأله عن حالة المريض الذي أرافقه، وهل تحسنت؟ ومتى سيخرج؟ فيجيبني بكل ارتياح وسعة صدر، وهو لا يعرفني أنذاك.

وكنت أعجب من هذا الصبر، والإخلاص، ومراعاة أحوال الناس.

وبعد ذلك كنت أراه في الإجازات إذا أتى إلى الزلفي، حيث أراه عندما

يأتي إلى أخواله أسرة آل سكران الكريمة بحكم صداقتي لعدد من أبنائهم؛ فأرى الدكتور محمداً متواضعاً جداً، وقريباً من الكبير والصغير.

وزادت معرفتي به، وبأحواله عن طريق ابن خالته صديق عمري الحميم الأخ الوفي الحفي المهندس عبدالرحمن بن عبدالله الخلف ـحفظه اللهـ حيث كان يذكر لي كثيراً من أحوال الدكتور محمد، وصلته لأرحامه، وحسن علاقته بأقاربه، وما كان عليه من الخلق الفاضل، والبر الذي لا يضاهى بوالدته.

وبعد ذلك توطدت علاقتي بالدكتور عبر مراجعتي له في العيادات، أو عبر زيارته المتكررة للزلفي، وتكرمه بحضور مناسبات الأعياد عندنا؛ وعبر التواصل الهاتفي المستمر.

وكلما التقيته أشرت عليه، وألححت بأن يكتب شيئاً من ذكرياته، وسيرة حياته؛ لتكون نبراساً لمن بعده ممن يسلكون مهنة الطب، أو غيرهم ممن ينشدون الكمالات، ويتطلبون معالي الأمور، خصوصاً وأنه خرج من بيئته لم يسبقه أحدٌ ـتقريباًـ إلى دخول ميدان الطب، ولم يَنْسِج على مثال سابق يحتذيه.

وإنما كان هو السابقَ والرائدَ في هذا الميدان؛ حيث اقتحمه، وأقبل عليه إقبال الشجاع على وادي السباع.

ولا ريب أن الفضل للمتقدم، وأن تجربته أخصب، والميدان الذي ركض فيه أوسع وأرحب.

وكان ـحفظه اللهـ كثيراً ما يعتذر عن الكتابة بأعذار عدة؛ فتارة يعتذر بكثرة الشواغل، وتارة يعتذر بأنه لم يعتد الكتابة، وتارة يعتذر بأن ما لديه لا يستحق أن يكتب، ويقرأ؛ فليس فيه ما يدعو إلى ذلك.

وهكذا كان دأبي معه، ودأبه معي؛ حتى شاء الله أن تبعث تلك الذكريات، والارتسامات من مرقدها؛ فانبعثت همته للكتابة؛ فأخرج كتابين، وهما: (طب المشعوذين) و (في عيادتي) حيث ضمنهما شيئاً من نظراته في الطب، وشيئاً من ذكرياته في العيادة؛ فلقيا قبولاً واستبشاراً من الناس، ثم كتب كتاباً عن (مستشفى الشميسي) وقصة إنشائه وتطوراته وما إلى ذلك.

ولما كثر الإلحاح عليه بكتابة سيرته اشترط عليَّ أن أقرأها، وأقدم له؛ فقلت له: أما القراءة فلا بأس، وأما التقديم فلا؛ لسببين: أحدهما: أنني لم أعتد أن أقدم لأحد، والآخر: أن مثلكم يقدم لنفسه، ولا يحتاج إلى من يقدم له.

ولكنه أصر على ذلك؛ فوافقته بشرط ألا يحذف شيئاً مما سأسطره في التقديم.

فقال: أخشى أن تبالغ في شيء من ذكري، وتقول في حقي ما لا أستحقه.

فقلت له: لن أبالغ، والمقصود ليس شخصك، وإنما المقصود ألا تضيع تلك السيرة كما ضاع غيرها أدراج الرياح، ولأجل ألا يَفْقِد القُدواتِ الأجيالُ القادمةُ الذي ربما يعتريهم الملل، أو الكسل، أو استطالة الطريق؛ فإذا ما رأوا سيرةً حيةً ماثلة أمامهم كان ذلك دافعاً لهم لمواصلة السير، وزاداً يهون عليهم متاعب الطريق، وذلك مما تَكْسب به شكوراً، وتزداد به صحيفة أعمالك نوراً؛ فكأنه وافق على مضض، ولم تكن موافقته بالتامة.

ووافق ذلك نوع هوىً في نفسي؛ حيث هممت أكثر من مرة أن أكتب شيئاً من سيرته ـحفظه اللهـ فجاءت الفرصة المناسبة.

وعلى كل حال فإن الدكتور ـكعادتهـ وفى بوعده، واقتطع أوقاتاً نفيسة من ساعات عمره؛ فدوَّن ما علق بذهنه من ذكريات، وارتسامات، وانطباعات، ونظرات، بدأً من ولادته، ونشأته الأولى في مسقط رأسه إلى أن انتهى به المطاف بما هو عليه الآن.

ولقد سمى ذلك الكتاب: ((من الزلفي إلى برلين سيرة طبيب)).

ومع أن الدكتور قد كتبه بعد مضي عشرات السنين من تلك الأحداث

التي مرت به؛ فقد جاء ذلك الكتاب حافلاً بالمتعة والفائدة، مصوراً بعض ما كان عليه الدكتور من محاسن الشيم، وتفاريق المروءة.

ولو أنه كتب تلك السيرة وهو قريب عهد بأحداثها لكانت أكثر إثارة، وتشويقاً؛ إذ ستكون مفصلة؛ وجمال الشيء ـفي بعض الأحيانـ بتفاصيله.

ولكن هذا هو الذي كان، ولعل القضاء يحكي الأداء، والعرب تقول في حكمتها السائرة: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.

والمطلع على هذا الكتاب سيجد فيه شيئاً من روح الدكتور محمد، وقبساً من سيرته العلمية، والعملية، وسيقف على معلومات ربما لم تمر به من قبل.

ومما سيلفت نظرك في تلك السيرة ما اشتملت عليه من الوفاء المنقطع النظير؛ فهذه الخصلة الحميدة، والقيمة الأخلاقية العظيمة سارية في هذا الكتاب سريان الماء في الورد؛ فقل أن تقرأ في موضوع من موضوعاتها إلا وترى ذلك الخلق ماثلاً أمامك.

وأول ما تراه من ذلك عنوان الكتاب؛ حيث استهله بمسقط رأسه الزلفي التي ولد فيها، ودرج على ثراها، وشب عن الطوق في أفيائها، وتلقى تعليمه الأول في مساجدها، وكتاتيبها ومدارسها؛ فكانت حاضرة في تضاعيف هذا الكتاب من أوله إلى آخره.

وتلك علامة رامزة على وفاء أصيل ، ومروءة جزلة.

قال ابن عبدالبر رحمه الله : «قيل لبعض الحكماء : بأي شيء يعرف وفاء الرجال دون تجربة أو اختبار؟ قال : بحنينه إلى أوطانه ، وتلهفه على ما مضى من زمانه» .

وقال رحمه الله : «عن الأصمعي قال : قال أعرابي : إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوام عهده ، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه ، وتشوُّقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه» .

وترى الوفاء ـكذلكـ في ذكره لمن كان لهم فضل عليه في نشأته الأولى من والدين وأقارب ، وجيران ، وأصدقاء ، ومعلمين ، وغيرهم إبان كان يعيش عيشة الشظف ، والعوز ، فتراه يذكرهم ، ويدعو لهم ، ويترحم عليهم ، برغم أن أكثرهم قد فارق الحياة.

وهذا نوع شريف من أنواع الوفاء ، قال أبو تمام مصوراً ذلك المعنى :

أولى البريـــة حقًّـــا أن تواســـيه عند السرور الذي آساك في الحزن

إن الكـرام إذا مـا أسـهلوا ذكـروا من كـان يـألفهم في المنـزل الخشـن

وترى الوفاء لمن لهم فضل عليه في العمل الحكومي ، وفي ميدان الطب من أساتذة ، ومسؤولين.

وترى الوفاء لمن سبقه من زملائه ، ومن هم من أقرانه ، بل ومن جاءوا

بعده؛ فتراه يذكرهم، ويعترف لهم بالجميل، وبالفضل، وبما يستحقون دون أن يجد في نفسه غضاضةً من ذلك.

وتلك خصلة أخرى اجتمعت مع الوفاء، ألا وهي الاعتراف للمحسن، و:

إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه

وكما قال الحكيم العربي:

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

وسترى في هذه السيرة مثالاً حيًّا للجد، والاجتهاد، والعصاميَّة؛ فالدكتور محمد ـحفظه اللهـ كان جادًّا مجتهداً عصاميًّا منذ بواكير حياته.

وسترى في هذه السيرة ما يؤكد هذه المعاني من نحو الجد في الدراسة، ومذاكرة الدروس، والحرص على التفوق، إلى الجد في تحصيل الرزق، والقيام بشأن أسرته، إلى الجمع بين التعلم والوظيفة إلى الطموح والرغبة في الترقي.

وإذا الرَّويَّة أيقظت عزم الفتى ملأت معاليْهِ الفِخَامُ طروسا

والشهم من عانى الخطوبَ فغدت أرقّ من النسيم مسيسا

وستطالع في تضاعيف تلك السيرة اعتزاز صاحبها بدينه، وهويته؛ برغم أنه قد سافر للدراسة في مطالع الثمانينات الهجرية ١٣٨٢هـ ـ

١٩٦٢م.

ولا يخفى ما لسطوة الإلحاد، والشيوعية في تلك الفترة واجتذابها لفئام من الناس في بلدان المسلمين فضلاً عن الذين تغربوا في بلاد الغرب الذي كان يموج بكثير من النظريات المادية الإلحادية.

وإذا اجتمع ذلك مع ما يشهده الغرب من التقدم التكنولوجي وما تعيشه بلاد المسلمين من التخلف في شتى الميادين ـ كان لذلك أبلغ الأثر في زعزعة الإيمان، وفقدان الهوية.

ومع ذلك كله فقد كان متمسكاً بعرى عقيدته، محافظاً على شعائر دينه، شديد الثقة بربة، ملتمساً السداد والمعونة منه.

ولو مال مع دواعي الهوى وانصرف عما هو بصدده لما نال ما نال.

ولا ريب أن ذلك يحتاج إلى مزيد جد، ومجاهدة، وتدبر للعواقب؛ إذ يرى الإنسان هناك ما تخور به العزائم، وتضعف النفوس: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨].

وما كان ذلك ليتم إلا بتوفيق من الله، وحفظ، ورعاية، ثم ما كان عليه من تربيته الأولى التي تعلم فيها القرآن وتفقه في علوم دينه، وما يجب عليه، وما كان يراه مترجماً على الواقع في مجتمعه المُؤْثِر للطهارة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، من نزاهة، وعزة نفس، وما جرى

مجرى ذلك.

وستطالع في هذه السيرة نموذجاً من الاعتدال حال السراء ، والضراء؛ من لزوم السكينة ، والتواضع ، والبعد عن مظاهر التعالي؛ فعيشه يوم كان لا يكاد يجد ما يسد به جوعته في منزله الأول؛ هو عيشه يوم أن أصبح طبيباً ملء السمع والبصر من ناحية تواضعه ، وقربه من الناس.

وسترى في هذه السيرة مراعاةً لأدب الغربة؛ فقد رمته الغربة في المانيا طلباً لعلم الطب؛ فاستحضر أنه سفير لوطنه ، وأهله؛ فتمثل آداب الغربة التي كان الأوائل يوصون بها؛ حيث كان الحكماء يولون الغريبَ ومَنْ رام الغربة عناية خاصةً؛ فيؤكدون عليه الاحتفاظ بالآداب الشريفة ، كما قالوا: (يا غريباً كن أديباً).

ومن هذا القبيل وصية عبدالملك بن سعيد الأندلسي لابنه يحيى عند عزمه على الرحلة إلى بلاد الشرق ، تلك الوصية التي يقول فيها :

أُوْدِعُكَ الرحمنَ في غربتك مرتقباً رحماهُ في أوبتكْ

فلا تُطِلْ حَبْلَ النوى إنني والله مشتاقٌ إلى طلعتك

وقال :

وليس يُدرَى أصلُ ذي غربةٍ وإنما تُعْرَف مِنْ شيمتك

ونبهه لآداب سامِيَةٍ فقال :

وامـش الهوينـا مظهـراً عفـةً وابغِ رضا الأعينِ عن هيئتكْ
وكـلُّ مـا يُفْضِـي لعـذر فـلا تجعلْـه في الغربـة مـن إرْبَتِـكْ
ولا تجـادل حاسـداً أبـداً فإنـه أدعـى إلى هيبتـك
وانطـق بحيـث العِـيُّ مسـتقبحٌ واصمُتْ بحيث الخيرُ في سكتتك

فلقد كان ـحفظه الله ـ مراعياً لتلك الآداب، ملتزماً بنظام ذلك البلد مما كان له أبلغ الأثر في مسيرته الدراسية.

ولا ريب مراعاة الأعراف والأعراف دليل عقل وكياسة؛ فمن جميل المعاشرة أن ترميك الغربة في بلدٍ ما، فتجد أن خلائقَ أهلها وعاداتِهم على غير ما تعرف، فتترك كثيراً مما كنت تعرف، وتأخذ بما يأخذون به؛ فإن ذلك من جميل المعاشرة، ومن حسن المداراة.

فـدارِهم مـا دُمـتَ في دارهـم وأرضِهم ما دمت في أرضهم

ومما يدخل في ذلك مراعاة الذوق العام، ونظام ذلك البلد الذي ستذهب إليه.

وكل هذا مشروط بألا يكون فيما تأتي أو تذر محذور شرعيٌّ؛ فإن كان ثم محذورٌ شرعيٌّ تَعَيَّن تقديمُ الأمر الشرعيُّ على كل عادة وعُرف.

قال أحد الحكماء:

إن جئـت أرضـاً أهلُهـا كلُّهـم عُـورٌ فَغَمِّـضْ عينـك الواحـدة

ثم إن الدكتور كان حريصاً على الإفادة من غربته؛ فللغربة فوائد كثيرة،

ومن أنفس ما يكتسبه الرجل في غربته أن يعلم أشياء لم يكن يعلمها من قبل؛ فكم من عالم لم يبلغ المقام الذي يشار إليه بالبنان إلا بالرحلة، وكم من صاحب موهبة لم تكشف موهبته إلا بالغربة.

كما أن في الغربة عوناً على التمكن من بعض الأخلاق السامية، مثل خلق الصبر؛ لكثرة ما يلاقيه الراحل من متاعب بدنية، وآلام نفسية.

ومثل خلق المداراة؛ فإن البعيد عن وطنه أشد شعوراً بالحاجة إلى الأدب ممن يعيش بين قوم يعرفون مِنْ حَسَبِهِ ومكانةِ بيته ما يجعل صراحتَه خفيفةً على أسماعهم.

كما أن الراحلَ لا يخلو من أن يلاقي في رحلته رجالاً صاروا مُثُلاً عالية في مكارم الأخلاق، فيزدادَ بالاقتداء بهم كمالاً إلى كمال، إلى غير ذلك من فوائد الغربة ومنافعها.

ولقد كان الدكتور محمد إبان غربته فطناً مستيقظاً؛ فالتغريب لا يذكي همة صاحبه، ولايربي ملكة الأدب فيه إلا إذا قارنته فِطْنَةٌ مستيقظة، تبحث عن أسرار الاجتماع، وتدقق النظر في تمييز الحَسَن من المعيب؛ لأن مِنَ الناس مَنْ لا يزيدهم الاغتراب إلا خَوَراً في طباعهم، وانحلالاً في عُقْدَةِ إيمانهم.

بل إن منهم من غمسوا وجوهم في الشرور حتى نَضَب منها ماءُ الحياء،

وانْسَدل عليها من السماجة قناعٌ كثيفٌ.

فلا غرو -إذاً- أن تطالع في تلك السيرة نظرات في أسرار الاجتماع في البيئة الألمانية، وما كانوا عليه طبائع، وما اتصفوا به من صفات؛ حيث أوضح انطباعاته عنهم بكل أدب، وإنصاف؛ فذكر بعض ما كانوا عليه من الخصال الحميدة من صدق، وعدل، وحب للعمل.

وذكر بعض خصالهم السيئة كقلة الشهامة، وبرود العواطف وما جرى مجرى ذلك.

وسترى في هذه السيرة ما كان عليه الدكتور محمد من تعطشٍ للمزيد من المعرفة، ونهمٍ شديدٍ لاكتشاف الجديد المفيد، لا في مجال تخصصه الدقيق فحسب، وإنما بكل ما تيسر له من صنوف المعرفة.

ولن تعدم أن ترى في هذه السيرة فوائد لغوية، وأدبية، وعلمية، وطبية، وتاريخية، وجغرافية.

وسترى زفرة الشوق، والحنين للوطن، ولوعة الغربة، وحسن العهد للأحبة لائحة في تلك السيرة.

ولهذا الأدب العالي مكانته عند العلماء، والأدباء، والفضلاء.

قال أبو طائع الطلحي: «كتب الجراحي إلي مرة: الله يعلم أنك ما خطرت ببالي في وقت من الأوقات إلا مَثَّل الذكْرُ منك لي محاسنَ تزيدني

صبابةً إليك، وضَنًّا بك، واغتباطاً بإخائك»[١].

ومن أحسن ما قيل في التشوق في حال السفر والغربة ما ذكره ابن عبدالبر ـرحمه الله ـ قال: قال عوف بن مُحلِّم: عادلت عبدالله بن طاهر إلى خراسان، فدخلنا الرَّيّ ـطهران ـ في السحر، فإذا قُمْرِيَّةٌ تُغَرِّد على فَنَن شجرة، فقال عبدالله: أحسن والله أبو كبير[٢] في قوله:

ألا يـا حمـامَ الأَيْـكِ إِلْفُـكَ حاضرٌ ... وغُصْـنُكَ ميَّـادٌ ففيـم تنـوحُ

ثم قال: يا عوف! أَجِزْها، فقلت: شيخ كبير، وحُملت على البديهة، وهي معارضة أبي كبير، ثم انفتح لي شيء، فقلت:

أفي كُـلِّ عـامٍ غُرْبَـةٌ ونُـزُوحُ ... أَمَـا للنَّـوى مِـنْ وَنْيَـةٍ فتُـريحُ
لقد طَلَّحَ البَيْنُ المُشِتُّ ركائبي ... فهـل أَرَيَـنَّ البَيْنَ وهـو طَلِيـحُ
وأرَّقـني بـالرَّيِّ نَـوْحُ حمامـةٍ ... فَنُحْتُ وَذُو الشَّجْوِ القَريح يَنُوحُ
على أنها ناحت ولم تَذْرُ عَبْرَةً ... ونُحْتُ وأسرابُ الدُّموعِ سُفُوحُ
وناحت وفرْخَاها بِحيثُ تراهما ... ومِـن دُونِ أفراخِـي مَهَامِـهُ فِـيحُ

ونفثةُ السحر في هذه الأبيات تَكْمُن في البيت الأخير.

ومعناه: أن هذه القُمْرِيةَ تنوح بالبكاء، وهي ترى أفراخها أمامها، فليس لِنُواحها مسوِّغ!

---

١ ـ الصداقة والصديق لأبي حيان التوحيدي ص٤٧.

٢ ـ يعني أبا كبير الهذلي الشاعر المشهور.

أما أنا فإن نُواحي على أولادي البعيدين الذين حال بيني وبينهم القِفارُ الواسعة.

وستقف من خلال هذه السيرة على أسماء رجال من زملاء الدكتور محمد كانوا مثلاً في الجد والاجتهاد، سواء في طفولته، أو في حال غربته، وستتعرف على أساتذة درسوا له لم يكونوا معروفين من قبل، وربما لو لم يذكروا ههنا لصاروا في طي النسيان.

وسترى في هذه السيرة عشق الدكتور محمد لمهنة الطبيب، وتخللها منه مسلك الروح؛ فبرغم ما أنيط به من مسؤوليات إدارية فإنه لم يدع تلك المهنة، بل كان يُؤْثِرها على غيرها؛ فلا ترى سعادته إلا مع المرضى وفي تلك المهنة الشريفة.

وستقف من خلال هذه السيرة على مقترحات ناضجة في ميدان الطب التي من شأنها النهوض به، وبخدماته، والتي صدرت من خبير بذلك الميدان.

ومع هذه السيرة الغراء المليئة بالحل، والترحال، والأحداث، والأعمال التي تأكل الأعمار أكلاً، وتشغل الإنسان عن الأهل، والأقارب، ومنادمة الأحباب ـ فإنك تجد البركة في حياة الدكتور؛ فهو ـ في الحقيقة ـ مثال حي للقيام بالعلاقات الاجتماعية؛ فتراه وثيق القرب من

أسرته ، وتراه شديد الصلة بأقاربه ، ومعارفه ، وأصدقائه.

ويتجلى ذلك من خلال زياراته ، ومشاركاته للناس في أفراحهم ، ومواساته لهم في أتراحهم.

كما تتجلى في شفاعاته ، ومبادراته التي ورد شيء منها من تلك السيرة.

وتتجلى ـأيضاًـ في مواقفه الكثيرة التي لا يعرفها أكثر المقربين إليه.

ولعلي أذكر موقفاً ينبئ عما ورائه من شهامة الخاطر ، وجزالة المروءة.

ألا وهو ما يذكر الأستاذ سعد المفرح عن شقيقه الدكتور محمد؛ إذ كثيراً ما يذكر الأستاذ سعد أن أخاه الدكتور محمداً لم يكن أخاً فحسب ، وإنما هو والد ، ويذكر كثيراً من مواقفه معه ، ومع سائر إخوانه وأقاربه.

ومن ذلك موقف حصل إبان إصابة الأستاذ سعد بمرض في الكبد.

يقول الأستاذ سعد في ذلك : «قبل حوالي سبع عشرة سنة تعرضت لمرض في الكبد ، فاحتجت إلى زراعة ، وكان أخي الدكتور محمد يتابع حالتي ، ويشعر بقلق كبير لما أصابني ، وقد اضطررت إلى السفر إلى ألمانيا.

وقبل السفر فرغ الدكتور نفسه لي تماماً ، وترك عيادته ، وسافر معي ، وأخذ معه اثنين من أبنائه إضافة إلى ابني ، فذهبنا إلى ألمانيا ، وكنت أرى أن الدكتور يتألم أكثر مما أتألم وأنا مريض.

وقد عرضنا على الأطباء الكشف عمن يلائم للتبرع لي؛ فاختار

الأطباء ـ بعد الكشف ـ الدكتور أنساً ابن الدكتور محمد للتبرع؛ لكونه الأنسب طبياً.

وقبل أربعة أيام من العملية بدأت الكُلى عندي بالضعف والتعب؛ فقال لي الأطباء: يُحتمل أنك ستبدأ بمرحلة الغسيل، فتوكلت على الله، وعزمت على زراعة الكبد.

وكان أخي الدكتور محمد في وضع صعب ما بين ابنه المُتَبَرِّع، وشقيقه المُتَبَرَّعِ له.

والحاصل أنني وابن أخي دخلنا العملية معاً.

وبعد خروجي من العملية لم يسأل الدكتور محمد عن ابنه، وإنما سأل عن الكُلى؛ خوفاً من أصاب بتعطل الكلى.

وكنت وأنا مريض قبل العلمية أرى في الدكتور محمد حزناً لم أشاهده في إنسان قبل ذلك.

والحمد لله أن الله فرج عنا، ففرحت فرحتين الأولى لشفائي، والثانية لفرح أخي الذي فرغ نفسه لي مدة ثلاثة أشهر لم يبالِ فيها بأي شيء سواي».

ويضيف الأستاذ سعد قائلاً: «عندما تجد أخاً لك بهذا الخلق تشعر أنه أخ، وأب وكل ما تملك، ويكون أغلى عندك من أبنائك».

ويضيف الأستاذ سعد ذاكراً بعض ما عند الدكتور من الجوانب الإنسانية، فيقول: «علمت ـ وليس من طريق أخي ـ أنه قال لموظفي الاستقبال: (إذا أتى مريض ولم يحاسب فدعوه وشأنه؛ فمن المؤكد أنه محتاج)».

هذا وإن من آخر مكارم الدكتور محمد المفرح ـ وليس بآخرها ـ تَفَضُّلَه بقبول رئاسة الجمعية الطبية التطوعية في محافظة الزلفي، وهي جمعية رسمية غير ربحية أسسها مجموعة من أفاضل أطباء محافظة الزلفي ـ لمعالجة المرضى، وتقديم الخدمات الطبية المتنوعة.

وكانت نواتها ما يعرف بالطبيب المتطوع الزائر الذي يَقْدُمُ في بعض الأيام إلى محافظة الزلفي قادماً من الرياض أو غيرها.

ثم تطور ذلك العمل، وصار جمعية رسمية في ١٤٤٢/٣/٧هـ يتزايد عملها، وخدماتها.

وقد ارتضى القائمون على ذلك المرفق المهم بالإجماع أن يكون رئيس الجمعية الدكتور محمد المفرح؛ فتفضَّل ـ بعد طول تردد ـ بقبول هذه الرئاسة.

ولم يكن تردده ناشئاً عن تنصُّلٍ عن المسؤولية، أو زهدٍ بالأجر والثواب.

وإنما كان عن خوف ألا يعطي هذا الأمر حقَّه.

ثم تكرم ـبعد ذلكـ برئاسة الجمعية؛ فقام بإصر ذلك العمل الجليل خير قيام، وقدم له ـولا يزالـ عصارةَ ما يملك من وقت، وخبرة، وجهد، وعلاقات، حتى أصبحت تلك الجمعية ـخلال فترة وجيزةـ من أرقى الجمعيات وأفضلها، وأضحت محلّ القبول عند الناس.

بل إن من يعملون تحت إدارته من فضلاء الأطباء وغيرهم ليعجبون أشد العجب من همته، ودقَّته، وتفانيه، وحرصه، وبذله، ومراعاته لمشاعر من يعملون معه.

ولقد لقيت منه محافظته ـالزلفيـ صوراً من أبدع ما يكون من الوفاء في ذلك الميدان، ورأى منه الأجيال التي بعده من الأطباء مثالاً حيًّا للطبيب المسلم المحتسب الذي يعطي بلا حدود، دون أن ينتظر جزاءً أو شكوراً.

وبعد فإني لآمل في أن يكون للدكتور محمد المفرح، وأمثاله ممن هم رواد في مجالهم ـ دور في النهوض بالجيل الحاضر خصوصاً ممن هم في ميدان الطب؛ وذلك باللقاءات بالأطباء الجدد، أو من هم في بداية دراستهم، أو من سيبتعثون لدراسة الطب؛ كي يفيدوا من تجربة الدكتور وزملائه الرواد في مجالهم، فذلك مما يختصر لهؤلاء كثيراً من الجهود، ويمدهم بالعزيمة والصبر، والجد، والاجتهاد، والقدرة على الإفادة من الوقت،

والاستمتاع بهذه المهمة الشريفة.

وفي الختام أسأل الله ـجلت قدرتهـ أن يحفظ الدكتور محمداً، وأن يمد في عمره، ويمنحه الصحة، والقوة، والبركة في المال، والوقت، والأهل، والولد، وأن يجعل ما رقمته يمينه في هذه السيرة علماً نافعاً يرفع درجاته يوم يلقى ربه.

الزلفي ٤ / ٨ / ١٤٤٣هـ